obeikandl.com

الفصل الثامن

أبناء سعود

عبد الله الثانى و سعود الثالث

صفحة بيضاء

obeikandi.com

أبناء سعود
عبد الله الثاني وسعود الثالث

تلت وفاة الإمام «فيصل» والتي حدثت في اليوم الثاني من شهر كانون (ديسمبر) الأول من عام ١٨٦٥ ، حقبة شهدت خلافات واقتتال كان آخرها قد أثر في أسرة آل سعود الحاكمة ؛ وأدى إلى انهيارها مؤقتا حدث ذلك خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

اتضح من خلال الزيارة التي قام بها الكولونيل «لويس بيللي» (البريطاني المقيم في الخليج) والتي حدثت في شهر آذار (مارس) من عام ١٨٦٥ ، أن صحة الإمام فيصل كانت آخذة في التدهور ، ولذلك قام الأمير «فيصل» وبشكل رسمي في شهر حزيران من العام نفسه بتعيين ابنه «عبد الله» وريثاً للعرش ، وبموجب تلك الصفة القانونية مارس «عبد الله» الحكم الفعلي للدولة السعودية . هذا وسبق له أن كان - وعلى مدى عشرين عاماً - الساعد الأيمن لوالده في الأمور الإدارية والعسكرية على حد سواء . ولم يحظى أخوه «سعود» بانتباه المحليين من مؤرخي تلك الفترة إلى أن مات والدهما وهي الفترة التي أبدى «سعود» فيها ولمدة قصيرة غيرته وعدائه لأخيه «عبد الله» .

لم يكن الذكاء المتبلد والفضائل المتمرسة عند الحاكم الجديد نداً لعدم الشعور بالمسؤولية واللامبالاة الصادرة عن أخيه المدعي الأحقية في تسلم الحكم ، لقد جلب التوتر والنفور السائد بينهما الدمار لبيت الأسرة السعودية وخلفه أطلالاً ودماراً .

كان أول عمل قام به «عبد الله» بعد أن اعتلى العرش هو أنه بنى لنفسه قصراً محصناً عرف باسم «المصمك»، وجعله إلى الشمال الشرقي من قلعة الأمير «تركي» القديمة التي كان الأمير «فيصل» قد احتلها ووسعها لتتوافق مع احتياجاته، ومنها كان يدير شؤون استعادة الأمجاد السعودية، إلى أن هدمت في السنوات الأخيرة ليشاد في مكانها قصراً يناسب متطلبات العصر الحديث.

سار «عبد الله» بقواته في فصل الربيع ليغير على قبيلة «الظفير» على الحدود العراقية، لكنه لم يحقق سوى مكاسب بسيطة تجلت في الاستيلاء على بعض الجمال والأغنام وتحول اهتمامه بعد ذلك إلى قضايا أكثر أهمية. وعلى ما يبدو كان «سعود» يعتقد بأنه من الحكمة أن ينأى بنفسه عن أخيه، فانشق بمعسكره وتوجه وجهة إقليم «عسير» في السلسلة الجبلية الواقعة غربي الصحراء العربية ليحظى بمساعدة زعيم تلك المنطقة «محمد بن عائض» وليحقق بالتالي غايته في استلام سدة الحكم، وعلى الفور أرسل «عبد الله» مندوباً عنه إلى «أبها» ليحذر حاكمها من أي تعاطف أو تعاون مع أحية، كما أمر ذلك المبعوث أن يطلب من «سعود» العودة إلى الرياض مع ضمان سلامته وعدم المساس بحياته، وقد رفض سعود تلك الدعوة علاوة على ذلك لم يخظى بالدعم الذي نشده من زعيم تلك المنطقة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «المكرمي» زعيم قبائل «نجران»، ولقي هناك حظاً أفضل إذ كان لقرابة النسب وعلاقاته الزيجية وقرابته من ناحية الأم مع قبيلة «العجمان» في «الأحساء» دوراً في دعم مكانته. وسرعان ما وجد «سعود» نفسه قائداً لقوة مخيفة من البدو توجه بها باتجاه منطقة «السليل»، وعندما وصل إلى هناك وعده زعيم «السليل» بتقديم الدعم له.

obeikandi.com

وهكذا أصبحت الساحة مهيأة لأول محاولة لاستعراض القوة بين الأخوين: فسارع «عبد الله» بأن أرسل أخاه الآخر «محمد» باتجاه الجنوب على رأس قوة شكلها من رجال قبائل بلدان «نجد». ظلت بقية مناطق «وادي الدواسر» على ولائها للأمير «عبد الله» لكن سعود بادر بالهجوم واشتبك الطرفان في منطقة يقال لها «المعتلا»، وتكبد الطرفان الكثير من الإصابات إلا أن النصر أخيراً كان من نصيب أنصار «عبد الله». أصيب «سعود» في تلك المعركة بجراح بليغة لكنه تمكن من الهرب من أرض المعركة ولجأ إلى قبيلة «المرة» في الصحراء، ومكث هناك إلى أن شفي من جراحه ومن ثم توجه إلى «البريمي» في نهاية عام ١٨٦٦ واستقر أخيراً في «عُمان» كضيف على «تركي السديري» الحاكم السعودي على تلك المنطقة، ودارت الأيام ومكث هناك لمدة أربع سنوات شعر في نهايتها بأنه أصبح بإمكانه أن يعكر صفو الأمن الذي كان ينعم به أخوه «عبد الله». حدث وبالتحديد في عام ١٨٦٩ أقدم أحد الأشخاص على قتل الأمير «تركي» في «الشارقة» بينما كان يحاول حشد الدعم المحلي لسلطان «مسقط» المخلوع «سالم بن ثويني»، وفي تلك الأثناء أيضاً حدث أن طلب أهالي «البريمي» من «عزان بن قيس» الذي اغتصب الحكم في كل من «مسقط» و «عُمان» أن يأتي ويحتل واحتهم لأنهم لم يرتاحوا لحكم الأمير «تركي» المتشدد. وسواء أثر تغيير هذه الأحداث على خطط «سعود» أم لم يؤثر، فقد قام «سعود» في العام التالي بزيارة إلى البحرين وهناك تلقى الدعم من حكامها من «آل خليفة» للهجوم على «قطر»، لكن باء ذلك الهجوم بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها الحامية التي وضعها «عبد الله» هناك.

وعاد «سعود» إلى البحرين وشمر عن ساعديه للقيام بمغامرة أكثر جدية خلال فصل الخريف المقبل. وفعلاً حدثت تلك المغامرة إثر مراسلات دارت بينه وبين قبيلة «العجمان» أنزل على إثرها قواته على شواطئ «العقير» وتقدم بها باتجاه واحة «الأحساء». تمكنت قواته وبسهولة من احتلال البلدان والواحات التي في الجوار وفرض حصاراً على الأحساء بعد أن الحق هزيمة بقوات عبدالله. على أي حال قاومت عاصمة الإقليم «الهفوف» ببسالة طيلة أيام الحصار التي استمرت أربعين يوماً، كان خلالها الأمير «عبد الله» موجوداً في الرياض يجمع قواته ليخفف الحصار عنها، وعليه أرسل أخاه «محمد» على رأس هذه القوة إلا أن «سعود» قرر أن يجابهه في الصحراء واحتل موارد مياه «جودة» الحيوية قبل أن يصل «محمد» إليها. وفي اليوم الأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٧٠ وبإصرار على الفوز من قبل الفريقين، دارت معركة «جودة» وسقط الكثير من الجرحى والقتلى من الطرفين، إلا أن جماعة «سعود» حققت نصراً مبيناً على قوات «محمد»، ووقع «محمد» في تلك المعركة أسيراً وأرسل كسجين إلى «القطيف» واحتجز هناك، فاستسلمت «الأحساء» دون حدوث المزيد من الاضطرابات، وأصبح «سعود» سيد كل مناطق شرقي الصحراء العربية ومسيطراً على كل طرق الإمدادات والتموين المؤدية إلي الرياض.

وخلال الفترة التي نصب فيها «سعود» نفسه حاكماً على «البريمي» حدث تطورات مهمة في مناطق «نجد»، إذ قام «عبد الله» إثر معركة «المعتلا» بتوجيه نشاطاته ضد أولئك الذين ساندوا أخاه في التمرد، وأرسل عمه «عبدالله بن تركي» على رأس قوة إلى «الأحساء» لتأديب قبيلة «عجمان»،

كما أقال حاكمها الإقليمي «محمد السديري» (الأخ الأكبر لتركي في منطقة البريمي) من منصبه وعين مكانه «ناصر بن جبر الخالدي». وبعد ذلك بفترة وجيزة نظم حملة على نطاق واسع وأرسلها إلى «وادي الدواسر» لتأديب الذين خانوا العهد معه في تلك المنطقة. تولى «عبد الله» بنفسه قيادة تلك الحملة وبقي حول تلك المنطقة لمدة شهرين ليستعيد سلطته عليها. ولدى عودته إلى عاصمته استحوذت الأحداث التي وقعت في «جبل شمر» على جل اهتمامه، فبالرغم من أنها كانت في حقيقة الأمر مستقلة إلا أنها لم تقدم سوى الخدمات اللفظية الشفوية لعائلة «آل سعود» الحاكمة.

حدث في عام ١٨٦٦ أن انتحر الأمير «طلال بن عبد الله» الذي أصيب بمرض عقلي وخلفه في الحكم أخاه «متعب». وبعد مضي عامين قام أبناء الأمير طلال بقتل «متعب» في بلدة «حائل» واستلم بعد ذلك «بندر بن طلال» منصب أمير الإمارة فيها. وأثناء تلك التطورات كان أخ آخر لـ «طلال» يدعى «محمد بن عبد الله» موجوداً في الرياض يقوم بزيارة إلى الإمام «عبد الله» ورأى «محمد» هذا أنه من الحكمة أن يبقى في الرياض لفترة من الزمن ليراقب تطورات الوضع في «حائل». قام في العام التالي «بندر» بنفسه بزيارة الرياض ليقدم تقديره واحترامه للإمام، وليقنع عمه بالعودة معه مع ضمان أن يعامل بكل احترام وكرم وحسن ضيافة. كان بيت عائلة «آل رشيد» على أعتاب كارثة مروعة تتكشف عن بداية عهد حكم تصدره أحد أبرز أبنائها والذي هو من دون شك من أعظم رجال تاريخ الصحراء العربية.

يتوقف المؤرخ المعني بسرد أحداث «نجد» عند عام ١٨٦٩ ويتحول

للتحدث عن البدء في حفر قناة السويس التي انتهت حسب ما ورد في وثائقه التاريخية عام ١٨٧٤[١] . ويعلق المؤرخ على هذه الحفريات بقوله . إن المتعهدين بهذه الأعمال كانوا الفرنسيون والبريطانيون وكان معهم الخديوي «إسماعيل باشا» . وبعد أن انتهى المتعهدون من عمليات الحفر فرضوا رسوما ثابتة على السفن التي تمر بالقناة يتم تحديدها تبعاً لحمولة كل سفينة . وفيما يتعلق بعملية وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، يمكن القول إن «هارون الرشيد» فكر في ذلك المشروع منذ زمن طويل وذلك لتسهيل العمليات التي كان يقوم بها ضد البيزنطيين ، لكن حدث أن حذره «يحيى البرمكي» من أنه إذا فعل ذلك سيمنع الفرنجة المسلمين من الوصول إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة ، وعليه أحجب عن تلك الفكرة وألغي المشروع ، إلا أن سياسات الدول العظمى في القرن العشرين كانت أكثر دهاءً ومكراً من ذلك .

كانت هزيمة «جودة» بمثابة كارثة لـ «عبد الله» وللعربية السعودية في نهاية المطاف . إذ تجلت ردة فعل «عبد الله» في أنه توقع أن يزحف «سعود» بقواته إلى الرياض ، الأمر الذي حمله على الفرار بتهور وعجلة قاصداً اللجوء إلى «حائل» لحماية نفسه . وأثناء استراحته في الطريق إلى هناك أرسل «عبد الله» مندوبا إلى الباشا التركي في بغداد ومندوبا إلى الباشا في البصرة وطلب منهما تقديم العون الفوري ليتصدى إلى تمرد أخيه عليه . وحدث أن قدم زعيم قبيلة «قحطان» المدعو «محمد بن هادي بن قرملة» لزيارته في معسكر

(١) افتتحت قناة السويس في عام ١٨٩٩ في عهد الخديوي إسماعيل، وكان ذلك في احتفال عام حضره امبراطور فرنسا نابليون الثالث وزوجته الأميرة نوره أوجبنى .

استراحته. وكان هذا الزعيم قبل أن يقدم إلى معسكر «عبد الله» قد زار «سعود» وشعر بالإهانة بسبب الاستقبال الفاتر الذي استقبله به. عرض «محمد بن قرملة» خدماته على «عبد الله» فما كان من «عبد الله» إلا أن سارع بدافع اليأس بالترحيب بتلك الخدمات، وعليه غير خطته وعاد إلى الرياض ووصلها في وقت مناسب مما جعل «سعود» يعدل عن نيته في التحرك بقواته باتجاهها.

لم يدم ذلك الهدوء لفترة طويلة علاوة على أن المجاعة التي قدر لها أن تستمر لمدة عامين زادت من الهلع والفوضى العامة في الصحراء العربية، وبالرغم من أن الناس الجياع بدأوا يأكلون لحم الحيوانات، إلا أن ذلك لم يمنع موت العديد منهم بسبب الجوع. وفي شهر نيسان من عام ١٨٧١ تحرك «سعود» بقواته باتجاه الرياض، إلا أن «عبد الله» هرب مجدداً جنوباً باتجاه مناطق قبيلة «قحطان»، لكنه قبل هربه كان قد أرسل قوة كبيرة وزودها بالمؤن والسلاح والذخائر لتقابله في تلك المناطق إلا أن هذه المؤن والعتاد والأسلحة وقعت غنيمة في يد «سعود» الذي هاجمها في منطقة «الجزعة» التي تقع على مسافة ترى بالعين من الرياض، وإثر ذلك الحدث دخل «سعود» الرياض دون مقاومة وعاثت قواته فيها سلباً ونهباً، كما سلبت العديد من البلدان المجاورة لها، وأصبح «سعود» سيد «نجد» سواء على نحو شرعي أو غير شرعي، ولبى وجهاء البلدان والمدن والقبائل استدعاؤه لهم وقدموا إليه وأقسموا يمين الولاء والطاعة له.

ومع حلول شهر حزيران (يونيو) أصبح «سعود» جاهزاً ليصول في أرض المعركة ويجول على رأس قوات كبيرة من البدو ورجال المدن، فشرع في

مطاردة «عبد الله» وحلفائه من قبيلة «بني قحطان» الذين كانوا يخيمون بالقرب من موارد مياه «الأنجل» لكنهم رحلوا عنها باتجاه واحة «البرة» بعد أن مر بها «سعود» في طريقه لاحتلال إقليم «الوشم» الذي كان مهماً بالنسبة إليه. ترك «سعود» عمه «عبد الله بن تركي» ليتولى أمور «شقراء» ورجع ليواجه أعداءه في واحة «البرة»، وهناك مني «عبد الله» بهزيمة منكرة وهرب هو وحلفاؤه إلى «الرويضة» في منطقة العارض، ومن هناك تمكن من الوصول إلى «الأحساء» لينضم إلى الحملة العسكرية التركية التي كانت تحت إمرة «فاروق باشا». كانت تلك الحملة العسكرية قد بدأت سيرها من البصرة في شهر حزيران، ووصلت إلى «الهفوف» عن طريق «القطيف»، وفي تلك الفترة كان «محمد» ابن فيصل» قد تحرر من السجن كما تم تسريح الحاكم الذي عينه «سعود»، وصرح الأتراك بأنهم قدموا إلى هناك بناءً على طلب «عبد الله» لمساعدته ضد التمرد الذي قام به أخاه «سعود»، لكنهم في حقيقة الأمر قدموا للبقاء في تلك المنطقة، كما أنهم أخذوا «عبد الله» أسيراً بالرغم من المعاملة الكريمة والتشريف الذي أبدوه له في البداية.

ومما لا ريب فيه أن أخبار وصولهم إلى «الأحساء» هي التي استدعت رجوع «سعود» إلى الرياض بعد معركة واحة «البرة»، لكن الأهالي لم ينسوا قسوة معاملته لهم التي لم يكن ليمضي عليها سوى بضعة أشهر، كما أن وجود الأتراك على مسافة ليست ببعيدة منهم شجعهم على الانتفاضة ضده. جاءت تلك الانتفاضة بعد أن أمر «سعود» بإعطاء الجنود الذين حاربوا معه في واحة «البرة» استراحة لفترة قصيرة، استغل الأهالي ذلك الظرف وحاصروه في القلعة لعدة أيام واستمر الحصار إلى أن قبل إنذار

الأهالي له بالرحيل عن الرياض مع أتباعه، ووعدوه بأن يؤمنوا لهم سلامة الانسحاب. وفعلاً سار «سعود» مع جماعته باتجاه «الدلم» وهي عاصمة إقليم «الخرج»، وبقي عمه «عبد الله بن تركي» حاكماً على الرياض.

لم يكن «سعود» لينوي البقاء عاطلاً عن القتال، فتوجه إلى «الأحساء» ووصل إلى هناك مع جماعته في شهر أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وشرع في أعمال السلب والنهب إلى أن تنبه الأتراك إلى الأعمال التي كان يقوم بها وألحقوا به هزيمة نكراء في معركة «الخويرة» التي حضرها أخوه «عبد الله» بنفسه. وعلى أي حال وبعد مرور فترة قصيرة عن هذه المعركة جاء دور «عبد الله» ليشك في نوايا حتى من كان يؤمن الحماية له، وبعد بضعة أيام من معركة «الخويرة» وصلت إلى «العقير» تعزيزات كبيرة للقوات التركية الموجودة في «الأحساء» وهناك أطلعه أحد الضباط عن وجود خطة تهدف لاعتقاله وترحيله ومن معه من أفراد عائلة «آل سعود» لتمهيد الطريق أمام عملية ضم «الأحساء» للإمبراطورية العثمانية. كانت تلك الخطة منسجمة تماماً مع سياسة «مدحت باشا» المتطرفة والخاصة بالعالم العربي، لكن المحللين مخطئون في القول إن الرجل الكبير أتى بنفسه على رأس تلك التعزيزات ليتأكد من تنفيذ ما كان يصبو إليه. ومهما تكن حقيقة الأمر فإن «عبد الله» أدرك الآن أنه كان في فخ يصعب الهرب منه، إلا أنه تمكن ومعه أخوه وابنه بفضل حيلة محبوكة تماماً من أن يروغ عن أنظار حراسه خلال نزهة كانوا يقومون بها في عصر أحد الأيام. وبعد عناء سفر وترحال في

الليل والنهار وسلوك دروب لم يطرقها أحد من قبل، تمكنوا من الوصول إلى الرياض ووجدوا أنفسهم وسط ترحاب وتهليل الأهالي بهم. كان قد مضى على هروبه من العاصمة أقل من نصف عام إثر معركة «جودة»، وكانت رحى الأيام والظروف قد دارت على أخيه بسبب تعاقب الأحداث التي لم يستفد منها والتي كان قد أعد لها وخسر أكبر إقليم في مملكته.

أصبح «سعود» مجدداً في حكم الهارب لكنه كان نشطاً في تحريك النضال من أقاليم الجنوب، وهي المناطق التي كان بإمكانه أن يحظى فيها بشكل دائم ببعض الدعم والمساعدة. كانت قد انضمت إلى «سعود» أعداد ضخمة من دواسر إقليم «الأفلاج»، فقام «عبد الله» - الذي كان يفكر في اتخاذ تدابير مسبقة لإحباط أي تقدم يقوم به «سعود» باتجاه الرياض - بإرسال أخيه «محمد» وعمه «عبد الله بن تركي» على رأس قوة كبيرة لاحتلال «الدلم». تحرك «سعود» بقواته (وباشمئزاز) ليفرض حصاراً على المدينة التي سرعان ما تواطأ أهلها معه بسبب تعبهم من الفاقة والحرمان والعوز، وبفعل ذلك التواطؤ تمكن «سعود» من دخول المدينة لكن «محمد» تمكن من الهرب ووقع «عبد الله بن تركي» في الأسر وأودع في أحد السراديب وفارق الحياة بعد بضعة أيام، ولم يكن هناك أي حب ضائع بينه وبين «سعود» لكن يبدو أنه كان المؤثر والفعال والوحيد النشط خلال سنوات الفوضى التي نجمت عن موت الأمير «فيصل». وقعت الأحداث المذكورة عند حوالي شهر كانون الثاني عام ١٨٧٣، وبعد مضي حوالي شهرين

التفت «سعود» إلى الرياض بعد أن نال من كل من «ضرما» و «حريملاء»، وهناك خرج «عبد الله» لملاقاته. ودارت معركة بالقرب من «الجزعة» أسفرت عن تسوية المسألة فيما بينهما بشكل نهائي وعلى النحو التالي: فر «عبد الله» مع حرسه الخاص باتجاه الكويت ليقضي فترة أخرى في المنفى بعيداً عن الرياض وسط جماعات قبيلة «قحطان» التي كانت تخيم بالقرب من آبار «الصبيحية»، على إثر ذلك الحدث حكم «سعود» الرياض بدلاً منه وتدفق عليه وجهاء المناطق المجاورة ليقسموا له يمين الولاء والطاعة للمرة الثانية، لكن كل مناطق «نجد» كانت تعيش حالة ميؤوس منها من الفوضى، وكان بإمكان أي عدو له أن يستغل تلك الظروف للنيل منه.

لا بد أن «سعود» أدرك أهمية التطورات الأخيرة التي حدثت في «حائل» إذ قام «محمد بن رشيد» عند حوالي نهاية عام ١٨٧٢ بالانتقام لمقتل أخيه، ووفاءً للوعد الذي قطعه «بندر بن طلال» على نفسه في الرياض قام بتعيين «محمد» في منصب هام ومربح على الصعيد المالي وهو منصب المشرف على طريق الحجيج بين العراق ومكة عبر أراضي شبه الجزيرة العربية. وجاء هذا التعيين في الوقت الذي كان فيه «محمد» عائداً من المناطق الحدودية مع العراق بعد أن أوصل ما أوكل له إلى السلطات التركية (العثمانية) هناك. في تلك الأثناء كان «بندر» ومعه عدد من أمراء الأسرة الحاكمة قد حشدوا قواتهم وخرجوا للتصدي لقوات «محمد»، وقد ذعر «بندر» لدى رؤيته للأعداد الكبيرة من رجال قبائل «الظفير» التي كانت ترافق «محمد»، وكان

اللقاء بين العم وابن الأخ بارداً جداً لا يطمئن أي طرف منهما، وعليه قام «محمد» بالمبادرة وطوق «بندر» بقواته وشهر سيفه وأردى «بندر» قتيلاً.

وعلى أي حال كانت أصول الفروسية في الصحراء العربية مرعبة في ذلك الوقت، بمعنى أنه كان لـ «محمد» الحق فعلاً في الانتقام من الضحية «بندر»، لكن لم تتوقف المشكلة عند هذا القدر، فكان للمقتول «بندر» خمسة إخوة تعقبهم «محمد» جميعاً وقتلهم باستثناء «نايف» الذي كان في ذلك الوقت مجرد طفل، إضافة إلى ابن رضيع لـ «بندر» كانت قد أنجبته له زوجة «متعب» التي تزوجها «بندر» بعد أن قتل زوجها. وشاءت الأقدار أن يكون هذا الرضيع والذي كان يدعى «عبد العزيز» أن يخلف «محمد» في الحكم لأنه تبناه لعدم قدرته على الإنجاب. تم إزالة الخزي الذي حل بأسرة «آل رشيد» بسبب الانتحار الذي اقترفه «طلال» بحق نفسه، حين قتل عبد العزيز كل أبنائه. هذا وذكر لـ «شارل دوتي» خلال الترحال الذي قام به بعد مضي بضعة سنوات على هذا الحدث أنه بالرغم من أن «محمد» كان قد اقترف جرائم لم يعرفها العالم من قبل، ، لكن لم يسبق لأمور الحكم أن حظيت بتعامل أفضل من تعامل «محمد».

جاء ذلك الحدث ليبرر وبالتأكيد تقييمه المبكر لمؤهلاته الشخصية، كما كان أيضاً مقدراً لـ «حائل» أن تكون الولاية الأم والعاصمة الحضارية لإمبراطورية الصحراء العربية ولكن لفترة محدودة من الزمن.

انطلق «سعود» في درب الغزو مرة أخرى عند أوائل شهر حزيران من عام

١٨٧٣، واستهدف هذه المرة تجمعات قبيلة «عتيبة» في عالية «نجد»، فداهمهم في مخيماتهم عند آبار «طلال» وكانت الساعات الأولى من القتال لصالحه لكن سرعان ما أعاد رجال القبائل تجمعهم وعززوا أنفسهم ودارت رحى المعارك ضد «سعود» ومني بخسائر كبيرة في الرجال والمعدات. وبعد أن عوض الخسائر التي فقدها من مخزونه طيلة موسم الخريف، عاد «سعود» عند انقضاء العام إلى مناطق قبيلة «عتيبة»، علماً بأن السجلات التاريخية لم تذكر شيئاً عن طبيعة النشاطات التي قام بها هناك. وفي تلك الأثناء كانت المشكلات في إقليم «الأحساء» تتقد تحت نار هادئة. فحدث أن وصل في شهر تشرين الأول عام ١٨٧٤ أصغر أبناء الأمير «فيصل» المدعو «عبد الرحمن» إلى «الأحساء» قادماً من بغداد. ومن المحتمل أيضاً أن يكون «عبد الرحمن بن فيصل» كان قد ذهب إلى الأتراك موفداً من قبل «عبدالله» بعد هروبه الثاني من الرياض باتجاه الكويت، علماً بأن هذا التخمين غير مذكور في السجلات التاريخية. ومهما يكن الأمر فبدت عودته إلى «الأحساء» بمثابة مناسبة لانتفاضة عامة ضد الحامية التركية الموجودة في «الهفوف».

هجم الأهالي على قلعة «خزام» الجديدة وقتلوا الحراس على الأبواب واستولوا عليها، إلا أن القوة الرئيسية التركية في القلعة تراجعت إلى حصن «الكوت» واستحكمت فيه لتقاوم الحصار المتوقع، لكن سرعان ما وصلت قوة لنجدتهم مؤلفة من الجنود النظاميين ومن المقاتلين البدو، وكانت تلك القوة قد قدمت من العراق تحت إمرة زعيم المنتفق «ناصر السعدون» الذي تولى منصب حاكم الإقليم.

شن «عبد الرحمن» هجمات مضادة عليهم إلا أنهم تمكنوا من دحره، ووقعت «الهفوف» فريسة أعمال سلب ونهب، ولم يعتدي الأتراك على الشيعة بل اعتدوا على كل شخص شكّوا بأن له علاقة بالحركة الوهابية أو كان متعاطفاً معها، وذلك انتقاماً للجنود الأتراك الذين قتلوا في تلك الاشتباكات. هذا وذبح في تلك الأحداث أعداد كبيرة من الناس، وسلب من الغنائم ما لا يحصى، وتمكن وجهاء المنطقة من النجاة بحياتهم بأن هربوا إلى البحرين كما هرب «عبد الرحمن» وأتباعه إلى الرياض، وتصادف وصولهم مع عودة «سعود» من الغارة التي شنها على «حريملاء»، وشاركوا في الترحاب بعودته إلا أنه كان في تلك الفترة مريضاً. وبعد فترة وجيزة وبالتحديد في السادس والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٨٧٥ وافته المنية.

وهكذا انتهت مرحلة مكربة ومضطربة من تاريخ أسرة «آل سعود» الحاكمة، علماً بأن الأقدار شاءت لأبناء «سعود» ولأبناء أبنائه أن يحلوا في الصحراء العربية بلاد الفتنة والعصيان لسنوات عديدة.

تسلم «عبد الرحمن» زمام إدارة الأمور في العاصمة الرياض نيابة عن «عبد الله» الذي كان لا يزال مع أخيه «محمد» في الكويت. وعلى أي حال كان «عبد الله» قد أرسل أخاه «محمد» للسيطرة على منطقة «الوشم»، وبعد بضعة أيام من العمل على استقرار الأمور في «شقراء» انطلق باتجاه «ثرمدا»، وقد أحدث هذا التصرف بعض الامتعاض في العاصمة الرياض. فما كان من «عبد الرحمن» إلا أن حشد قوة كبيرة من الأهالي ومن البدر وسار بها وإلى جانبه أبناء «سعود» باتجاه «ثرمدا» وفرضوا عليها حصاراً دام لبضعة

أيام. وهناك ودارت اشتباكات سقط بسببها العديد من القتلى من الطرفين، ولم يمض وقت طويل حتى توصلا إلى اتفاق علي الهدنة وعادت العلاقات الودية بينهما، ووضع «محمد» نفسه تحت تصرف أخيه الأصغر وسلمه أسلحته وكل معدات التنقل. وبالطبع كان من المحتمل في هذه المرحلة أن يكون «عبد الرحمن». يفكر بالعمل لمصلحته الشخصية، ولذلك تحرك بقواته باتجاه «الدوادمي» وفي الطريق واجه زعماء قبيلة «عتيبة» الذين كانوا يعملون على تثبيت أقدامهم في تلك المنطقة، ودارت معركة بينهم مني «عبدالرحمن» فيها بالهزيمة والخسائر، وحتى عندما عاد إلى الرياض سرعان ما دارت المشكلات بينه وبين أبناء «آل سعود».

وقد دفعه تصرف أبناء «سعود» إلى أن يلقي بنفسه بين يدي «عبد الله» وانضم إليه في موقعه بالمنطقة الشرقية من السعودية العربية تاركاً الرياض تحت رحمة أبناء أخيه. وبعد فترة قصيرة سار «عبد الله» ومعه «عبد الرحمن» على رأس قوة كبيرة من البدو باتجاه الرياض، فما كان من أبناء «سعود» الذي كانوا يطالبون بالحكم إلا أن فروا خلسة باتجاه «الدلم»، وهناك فتح «عبد الله» مجلسه للمرة الثالثة ليستقبل المهنئين من الأهالي وليستمع إلى قسم الولاء له. كان ذلك التغيير الثامن الذي شهدته العاصمة الرياض منذ وفاة الأمير «فيصل» والتي حدثت قبل إحدى عشر عاماً. إن تواريخ هذه التغيرات ليس محدداً بشكل دقيق في الوثائق التاريخية، لكنها تبدو على النحو التالي:

من ٠٢/ ١٢/ ١٨٦٥ إلى ٩ / ٠٤/ ١٨٧١ عبد الله الثاني ابن فيصل

من ١٠/ ٠٤/ ١٨٧١ إلى ١٥/ ٠٨/ ١٨٧١ سعود الثالث ابن فيصل

obeikandi.com

من ١٥/ ٠٨/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ١٠/ ١٨٧١	عبد الله بن تركي
من ١٥/ ١٠/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣	عبد الله الثاني ابن فيصل
من ١٥/ ٠١/ ١٨٧٣	إلى ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥	سعود الثالث ابن فيصل
من ٢٦/ ٠١/ ١٨٧٥	إلى ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦	عبد الرحمن بن فيصل
من ٢٨/ ٠١/ ١٨٧٦	إلى ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦	أبناء سعود الثالث ابن فيصل
من ٣١/ ٠٣/ ١٨٧٦		عبد الله الثاني ابن فيصل

ومن بين الزوار الذين قدموا إلى «عبد الله» في هذه المناسبة كان شخصاً يدعى «إبراهيم بن عبد المحسن بن مدلج» من عشيرة «العليان» من «بريدة». أتى «إبراهيم» لينشد الإنصاف في موضوع اغتصاب حكم «بريدة» من قبل «حسن بن مهنا الصالح» «أبا الخيل» زعيم العشيرة المنافسة لعشيرته. وتبدأ الأحداث حين قام مهنا الصالح أبا الخيل بإبعاد بعض العناصر من أسرة آل عليان لاشتباهه بمحاولة الإطاحة بحكمه. وبعد مدة من النفي في عنيزة عادت هذه العناصر وأطاحت بالأمير مهنا وقتلته وهو في طريقه لصلاة الجمعة ولذلك قام ابنه حسين بمحاولات الثأر لأبيه واستعادة السلطة.

وجه حسن اهتمامه صوب القلعة التي تحصن بها الثائرون على والده حدث وأن قتل اثنان من قادة عشيرة «أبا الخيل» بعيارات نارية صوبت عليهما من القلعة خلال اغتصاب السلطة، لكن المهاجمين استمروا في التقدم ونجحوا في وضع لغم تحت برج القلعة الرئيسي. وانفجر اللغم وأطاح بالبرج الذي دفن تحت أنقاضه العديد من الأشخاص. كما تمكن المهاجمون من أسر وقتل عدد آخر ممن كان في القلعة، وهكذا تمكن «حسن» من الانتقام لمقتل والده. لم يكن «إبراهيم» موجوداً في «بريدة» في ذلك

الوقت، إلا أن «حسن» تمكن من اعتقال والده واثنين من إخوانه وأودعهم السجن بتهمة كانوا على علاقة بالعناصر القادمة من عنيزة للإطاحة بالسلطة. على أي حال تمكنوا في إحدى الليالي من الهرب إلا أن قوات «حسن» تعقبتهم وتمكنت من قتلهم باستثناء «مدلج» (الأخ الأصغر) الذي تمكن من الهرب وإطلاع الآخرين على ما حدث. وافق «عبد الله» مبدئياً على اتخاذ إجراء بحق «حسن المهنا»، وعندما سنحت الفرصة سار بقوة ضخمة باتجاه «عنيزة»، لكن «حسن المهنا» ناشد (محمد بن رشيد) أن يقدم له وعلى الفور قدم «ابن رشيد» إلى «بريدة» وكان لقدومه السريع دور في تهدئة اندفاع «عبد الله» في تنفيذ وعده. على أي حال قرر «عبد الله» أن يحل معسكره وأن يعود إلى الرياض دون أن يحقق أي غرض، علماً بأن ذلك الحدث كان على درجة من الأهمية، لأن حائل والرياض استعرضتا فيه قواتهما ولأول مرة.

ومما لا شك فيه أن «حسن المهنا» كان الشخص الذي بدأ في الهجوم على المناطق الخاضعة لسلطة «آل سعود»، لكنه مني بهزيمة كما مني بالخسائر المادية الكبيرة من جراء محاولته الاستيلاء على مدينة «شقراء» في ربيع عام ١٨٧٧. وفي وقت لاحق من ذلك العام انضم «حسن المهنا» إلى قوات «محمد بن رشيد» في الغارة التي شنوها ضد قبيلة «عتيبة» التي كانت تخيم في الجوار، وتضررت محاصيل «أشيقر» بشكل ملحوظ علاوة على الضرر الذي أصابها بسبب الجراد، وقام الغزاة باعتبار أنهم كانوا يبتغون النهب فقط بسرقة ما تبقى من المحصول، كما سرقوا ثمار العديد من واحات النخيل. حان الآن دور عشيرة «العليان» (الذين أصيبوا بخيبة أمل بسبب عدم تمكنهم

من التقرب إلى السلطة في الرياض) أن يجربوا حظهم مع «ابن رشيد»، فأرسلوا وفداً إليه أن جماعة «حسن المهنا» نصبت كميناً لثلاثة من كبار ذلك الوفد أثناء عودتهم من الاجتماع بابن رشيد، وتمكنوا من قتلهم في منطقة «بقرية» عندما كانوا في طريقهم إلى «عنيزة» عائدين من «حائل»، وكان من بين القتلى «إبراهيم بن عبد المحسن».

والحدث البارز الآخر من بين أحداث عام ١٨٧٧ كان موت شريف مكة «عبد الله بن محمد بن عون» إذ خلفه في السلطة هناك أخوه «حسين» بعد أن أقصى عن الحكم «علي» و «محمد» والدا المتوفى «عبد الله».

لم يشر المؤرخ «ابن عيسى» إلى الزيارة التي قام بها «تشارلز دوتي» إلى «حائل» وإلى «القصيم» بل خرج عن أسلوبه المألوف ليقول بأن الأعوام ما بين١٨٧٨ و ١٨٨١ لم تشهد أية أحداث تذكر، وفعلاً يمكن أن يكون هذا الشيء صحيحاً أو يطبق على المناطق الخاضعة لحكم «عبد الله» والتي أخذت في التقلص والتناقص، خاصة أنه خسر إقليم «الأحساء» لتستولي عليه القوات التركية دون أمل في استرداده، كما أن إقليم «القصيم» بدأ يأخذ استقلاله بشكل حذر وسري بحماية علنية أو غير علنية قدمها له «محمد بن رشيد»، ناهيك عن وجود منطقة «الخرج» تحت سيطرة أبناء «سعود». . . فلم يبقى بإمكان «عبد الله» أن يفعل الكثير ليستعيد هيبته وسمعة أسرة «آل سعود» الحاكمة واللتان بدأتا تأخذان في التناقص والضعف.

ازدادت في تلك الفترة رغبة «ابن رشيد» في مد نفوذه نحو الشمال باتجاه «الجوف» و «وادي سرحان»، وكان الأتراك يزحفون على هاتين المنطقتين ببطء وبدعم مزعوم غير حقيقي من قبل قبيلة «الرولة» وزعيمها المدعو

«سطام بن شعلان». حدث في فترة سابقة أن أرسل الأتراك قوة صغيرة لتعسكر في منطقة «الجوف» بموجب اتفاق لحفظ ماء الوجه تم مع «محمد بن رشيد»، لكن تصرف القوات التركية أسفر عن انتفاضة الأهالي وإجبارهم القوات التركية على التراجع. وبشكل عام يمكن القول إن الواحة هناك حافظت على ولائها لـ «حائل»، وبدأ «محمد» ببطء لكن بخطى ثابتة في مد نفوذه باتجاه «وادي السرحان» حتى« وصل تقريباً إلى حدود «حوران».

كان «محمد» وبدون شك الشخصية القوية في العربية السعودية في ذلك الوقت، فبعد أن تمكن من التصدي والحد من التوسع التركي في الشمال، نأى بنفسه عن أي مغريات للتدخل في نشاطاتهم التي كانوا يقومون بها في «الأحساء» وفي مناطق الحجاز، وكان الأهالي في كلتا هاتين المنطقتين مستائين تماماً من سيطرة الأتراك وإدارتهم للأمور، وكان الشريف «حسين» ضحية هذا الاستياء إذ أقدم الأهالي في عام ١٨٨٠ على اغتياله بسبب إذعانه وقبوله لهذه الأحوال. استغل الأتراك هذه الحادثة وأحدثوا تغييراً على صعيد السلالة الحاكمة لإمارة مكة، وعليه تم استدعاء «عبد المطلب بن غالب» وهو من سلالة «ضاوي بن بني زيد» وتم تعيينه أميراً على مكة. والجدير بالذكر أنه سبق له أن شغل ذلك المنصب من عام ١٨٥١ حتى عام ١٨٥٦، ثم أقيل مجدداً من ذلك المنصب في عام ١٨٨٢ ليعين مكانه «عون الرفيق» وهو أحد إخوة المغدور «حسين» وهو من خلفه أيضاً بعد اغتياله. كما قدر له أن يشهد المرحلة الأولى من خط سكة الحديد في الحجاز والتي انتهت في السنوات الأولى من القرن العشرين أي خلال فترة حكمه، لكنه لم يعش طويلاً ليشهد انتهاء العمل في سكة حديد الحجاز، فداهمته المنية

عام ١٩٠٥ وخلف وراءه سمعة حسنة دلت على فعاليته وجاذبية شخصيته.

أما بالنسبة لـ «عبد الله» فقد كان «محمد» مكتفياً بمراقبته عن قرب دون أن ينقض عليه. وفي الواقع كان كل ما توجب عليه أن يفعله هو أن يترك ضحيته تحفر قبرها بيدها، لكن ذلك لا يعني أن «محمد» لم يطلق العنان لقدراته الفائقة في التعامل وإحداث المكائد السياسية، والدليل على أنه أعطي إمكاناته وقدراته الشخصية حق قدرتها ووزن الأمور، وكان بإمكانه أن يحقق التفاهم مع كافة الشخصيات القيادية في كل إقليم من أقاليم مملكة «عبد الله» التي كانت آخذة في التناقض والضعف. كذلك تمكن من التفهم لأي أزمة يمكن أن تتعاظم وتكبر في شؤونهم الداخلية.

وبالتأكيد كانت تلك حالته مع «المجمعة» ومع إقليم «سدير» اللذان خرجا من عام ١٨٨٢ متأكدان من استقلاليتهما. حشد «عبد الله» مقاتليه من عشائر «العارض» ومن «عتيبة» ليقودهم باتجاه «المجمعة»، فما كان من أهالي تلك المنطقة إلا أن ناشدوا «ابن رشيد» أن يقدم لهم العون الذي كان قد وعدهم به، وتجلت ردة فعل «محمد» بأن أرسل على الفور قوة كبيرة إلى «بريدة»، وهناك انضمت إلى تلك القوة جماعات مقاتلة بقيادة «حسن المهنا»، بمن معه من فرق «القصيم». وبعد أن تأكد من زخم وتعزيز القوة تقدم بها حتى وصل إلى «الزلفي». كان مجرد خبر تقدم قوات «محمد» كاف لأن يجعل «عبد الله» يهرول عائدا إلى الرياض بعد الحصار غير المجدي الذي دام لمدة أربعين يوماً. أمضى «محمد» بعد ذلك بضعة أيام في «المجمعة» وهناك نظم أمورها وعين عودته إلى ديرته أحد رجاله المدعو «سليمان بن سامي» (وهو من حائل) حاكماً عليها نيابة عنه. تمكن «محمد» وبدون تفاخر وبقليل من

الجهد أن يضيف إلى مملكته إقليماً آخر، فكان لا بد لهذا الحدث أن يكون بمثابة تحذير إلى «عبد الله» لكنه كما سنرى لاحقاً تجاهل هذه الحقيقة ليلقى في الوقت المناسب مصيراً مقدراً.

في تلك الأثناء قام أبناء ذرية «سعود» وعلى سبيل الحصر بالتصدي لتحديات تنامي سيطرة «ابن رشيد» على مناطق «نجد»: فقام «محمد» أكبر أبناء «سعود» بتنظيم قوة شكل رجال قبائل «عتيبة» الجزء الأكبر من مقاتليها. وكانت هذه القوة معسكرة بالقرب من آبار «عروى» في منطقة «العارض» وهناك هاجمتها قوة مشتركة من رجال «حسن المهنا»، فانهزمت قوات «محمد بن سعود» وتراجع بها إلى «الخرج» ليعد العدة لحملة أخرى يشنها خلال فصل ربيع عام ١٨٨٣، وكان هدفه من تلك الحملة غزو جماعات «مطير» في الصحراء الشرقية، وفعلاً تحرك باتجاهها واستولى على الكثير من الغنائم (من الجمال وأنواع أخرى من الماشية)، وقتل في تلك المعركة أحد إخوته المدعو «عبد الرحمن».

شهد فصل شتاء عام ١٨٨٣/ ١٨٨٤ أمطاراً غزيرة سالت على إثرها السيول في الأودية. وفي أوائل شهر كانون الثاني من العام نفسه ظهر «عبدالله» على ساحة المعركة من جديد ولكن بدون تخطيط مركز، ليجبر أهالي «المجمعة» على الركوع والخضوع له. ومن «شقراء» قاعدته العسكرية المتقدمة أرسل منادين واستدعى العشائر لحشد القوات في سهل «الحمادة» الواقع في مسار المراعي الخصبة باتجاه «أم العصافير». هب التحالف القائم بين «حائل» و «بريدة» للعمل والدفاع عن «المجمعة» التابعة لحمايتهما، ودارت المعركة المحتومة التي انتهت بهزيمة تامة وبخيبة أمل «عبد الله» ومن

تحالف معه، وبعد انتهاء المعركة مكث «ابن رشيد» في «الحمادة» ليرتب الأمور الإدارية في المناطق الواقعة على كلا الجانبين، واستجاب كبار أهالي القرى والبلدان في مناطق «الوشم» و «سدير» لندائه ومثلوا أمامه، وتقول المصادر التاريخية إن «ابن رشيد» عين حاكماً على كل قرية من قرى هذين الإقليمين. كان ذلك أول تصادم مسلح حقيقي بين الفئة الحاكمة وبين الرعية التابعة لها، ودلت تصرفات «محمد» التي ظهرت بعد تلك المعركة على أنه أصبح الآن يدرس إمكانية عكس الأدوار. وهنا يشير المؤرخون من «نجد» أن «ابن رشيد» بدأ في هذه المرحلة يتوق للسيطرة على مملكة «نجد» نظراً لأن هناك جماعات لها مصلحة في هذا الأمر وستقدم له الدعم في مراحل تحقيق ذلك الهدف.

ومع نهاية شهر آب (اغسطس) من عام ١٨٨٤ بلغ الأمر بـ «عبد الله» إلى حد أن أدرك ما كان خلف ظهره، فأرسل أخاه «محمد» إلى «حائل» وحمله رسالة ودية إلى «ابن رشيد». استقبله «ابن رشيد» ووجبه وعاد «محمد» إلى الرياض في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول محملاً بالهدايا الثمينة، وبدون أي تحفظ تخلى «محمد» عن الإقليمين ليعودا تحت حكم «عبد الله». والجدير بالذكر أن «محمد» كان في وقت مبكر من ذلك العام قد ضم هذين الإقليمين إلى مملكته، وكان على يقين بأن الهدايا التي أرسلها إلى «عبد الله» كانت ستعود عليه في الوقت المناسب بفائدة مضاعفة. كانت الاضطرابات والفتن لا زالت على أشدها في كل المناطق التابعة لحكم «عبد الله». وبالمناسبة نقول إن وثائق المؤرخ «ابن عيسى» تتوقف عن سرد الأحداث عند هذه النقطة. ومن هذه النقطة فصاعداً علينا أن نتبع سبيلاً آخر

عبر السجل التاريخي للأحداث في الصحراء العربية، علماً بأن لدينا ما يكفي للشك بأن السجل التاريخي المكتوب بقلم المؤرخ «عبد الرحمن بن ناصر» تحت عنوان «السعد والمجد» يعوض لنا عن الجزء المفقود من الوصف التاريخي الذي بدأه، إذ إنه تعرض للكثير من الشطب والإلغاء والتصحيح الهامشي. يمكن أن يقال بأن الأسلوب هو واحد في حين أن الأجزاء التي ألغيت والتي يمكن فهمها بسهولة من المخطوطات اليدوية يبدو عليها أنها أصدق أن تكون مطبوعة من أن يكون المحرر قد قام بجهد كبير لتغيير صيغة صورة الواقع، وعلى أي حال فإن لدينا النسختين ويمكننا أن نختار فيما بينهما.

وليكن الأمر مهما يكن فإن المؤلف الجديد (وبعد أن نسخ كلمة بكلمة سجل الأحداث التي كتبها سلفه على مدى عدة سنوات سبقت المرحلة التي توصلنا إليها) يسرد الأحداث بدءاً من التاريخ الهجري ١٣٠٣ والمصادف للعاشر من تشرين الأول عام ١٨٨٥ وهي السنة التي تم فيها توقيف وسجن عاثر الحظ الأمير «عبد الله» في الرياض على أيدي أبناء أخيه «سعود»، وبعد ذلك الحدث استأثروا في الحكم. وها هي الفرصة تلوح أمام «محمد بن رشيد» ليظهر صداقته إلى «عبد الله» وفي الوقت نفسه يبسط يده على ما تبقى من المملكة السعودية، ولذلك توجه إلى الرياض على رأس قوة كبيرة تراجع أمامها أبناء «سعود» وولوا وجهتهم صوب «الخرج». تمكن «محمد» من إطلاق سرح «عبد الله» من السجن وأخذه معه إلى «حائل» حرصاً على سلامته وعين «سالم السبهان» حاكماً على الرياض وهو واحد من أكثر الشخصيات التي يثق بها، ومعروف عنه شدته وحرامه لكنه كفؤ. اختلفت

الروايات فيما إذا كان «ابن رشيد» أخذ معه في تلك الفترة إلى «حائل» «عبد الرحمن»، لكن يبدو أنه من المرجح أن «عبد الرحمن» لم يذهب إلى «حائل» لزيارة أخيه إلا بعد مضي عامين تقريباً من ذلك الحدث. كما لا تتوافر وثائق تاريخية تحدد مكان وجود «محمد بن فيصل» في تلك الفترة. ولم تعاود الوثائق التاريخية ذكر أخباره إلا في الجزء الأخير من عام ١٩٨٠ حيث ورد أنه كان في ذلك التاريخ موجوداً في الرياض، ومن المرجح أن «محمد بن فيصل» كان طيلة كل تلك الفترة ومنذ رحيل «عبد الله» إلى «حائل» موجوداً في الرياض.

وخلال خريف عام ١٨٨٦ (والذي جاء مصادفة إثر فصل الربيع الذي شهد الكثير من الأمطار)، حدثت مشكلات في إقليم «الخرج» بين أبناء «سعود» الذين لم يكفوا عن إثارة الشغب والاضطرابات، بين أهالي تلك المنطقة الذين ناشدوا «سالم السبهان» التدخل من أجل إصلاح ومعالجة الوضع. أرسل «سالم» جماعة مسلحة تحت إمرة رجل يدعى «شنيف» لمعالجة الوضع هناك، وقتل في ذلك الاشتباك ثلاثة من أبناء «سعود» وهم: محمد وسعد وعبد الله، وكان الابن الآخر «عبد الرحمن» قد سقط في معركة «أم العصافير» لكن الابن المتبقي منهم ويدعى «عبد العزيز» كان في زيارة إلى «حائل» أثناء حدوث ذلك الاشتراك، وهناك ألقى «ابن رشيد» القبض عليه وأودعه السجن بشكل مؤقت.

ومرة ثانية هطلت أمطار غزيرة وكان «ابن رشيد» في تلك الأثناء يغير على قبيلة «عتيبة» التي وجدها متجمعة بكامل قوتها في منطقة «عروى»

وهي مسرح الأحداث التي وقعت في عام ١٨٨٧ . ودار اشتباك بينهم، ويبدو أن البدو الذين كانوا تحت قيادة رجل يدعى «محمد بن هندي» تمكنوا في البداية من تحقيق النصر، إلا أن وصول مجموعة قوية من «القصيم» بقيادة «حسن المهنا» مكنت «ابن رشيد» من إلحاق الهزيمة برجال القبائل والاستيلاء على ماشيتهم ومعدات معسكراتهم.

شهد خريف العام التالي ١٨٨٧ أيضاً أمطاراً غزيرة سالت على إثرها الوديان، وخلال هذا الموسم وجه «ابن رشيد» غزواته باتجاه «العجمان» ورافقه في تلك الغزوات مرة ثانية زعيم «بريدة»، وقصة أحداث العام التالي كانت مشابهة لأحداث هذا العام، وكانت قبيلة «عتيبة» مرة ثانية ضحية تلك الغزوات.

واستجابة للشكاوى والتذمر الذي أرسله أهالي الرياض والتي أعربوا فيها عن استيائهم من «سالم السبهان» والمولع بالقتال، قام «ابن رشيد» بعزلة من منصبه وعين عام ١٨٨٧ بدلاً منه حاكماً على الرياض يدعى «فهد ابن رخيص» وخلال شتاء عام ١٨٨٩/ ١٨٩٠ قام «ابن رشيد» بغزوات اتسمت بطموح أكبر ووصلت حتى مناطق «بلي» و «جهينة» في الحجاز، وعند عودته من هذه الغزوات وجد أن ضيفه «عبد الله بن فيصل» كان يعاني من مرض شديد، وعلى الفور نزل عند رغبته وسمح له بالعودة إلى الرياض مع أخيه «عبد الرحمن». ولم يكتفي «ابن رشيد» بأن سمح له بالعودة، بل أعاد إليه كامل حقوقه في السيادة على ديرته، لكن كرم «محمد بن رشيد» هذا لم يفد الأمير كثيراً لأنه سرعان ما داهمته المنية بعد وصوله إلى الرياض ومات وبالتحديد في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٩ . مر على

توليه السلطة من والده عشرون عاماً حكم خلالها مملكة امتدت من «جبل شمر» إلى مرتفعات «عُمان» ومن شواطئ الخليج إلى حدود الحجاز واليمن.

كان لعدم كفاءته دور في تبدد هذا الإرث الملكي الكبير، كما أنه لم يتردد في جلب المساعدات الخارجية لدعم وإسناد عرشه المتداعي، وكانت النتيجة أن الأجانب ضموا إلى ملكهم كل المناطق التي أتوا لنجدتها وإنقاذها. وعندما ذهب إلى منفاه في «حائل» ليعيش بقية عمره لم يكن يملك سوى ديرته «العارض» وسيادة اسمية على «الوشم» و«سدير». كان «عبد الله» قد قضى أقل من نصف عمره بقليل محارباً في أكثر من موقع ومع أكثر من جبهة، في تلك الأثناء تولى آخرون مكانه في الحكم وسط مملكة متداعية. وكونه وعلى كل المقاييس رجل جاذبية وتهذيب وكياسة، كان ينقصها الحكمة في التعامل مع الخصوم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قد بلغ سن السبعين عندما وافته المنية.

كان على أخيه الأصغر «عبد الرحمن» الذي بلغ من العمر في تلك الفترة سن الأربعين أن يتقدم موكب جنازة مملكة والده، فلم يتردد إثر وفاة أخيه «عبد الله» من يخلفه بالسلطة رغم وجود أخيه الأكبر «محمد» الذي لعب دوراً نشطاً في الحملات العسكرية التي تمت في زمانه. لكن على ما يبدو لم تكن لديه طموحات سياسية. قام «عبد الرحمن» وعلى الفور بإبلاغ «ابن رشيد» بخبر وفاة أخيه وبتسلمه السلطة من بعده، وفي الوقت نفسه طلب منه أن يسحب ممثل «آل رشيد» من الرياض المدعو «فهد بن رخيص». وافق «محمد بن رشيد» على الاقتراح الذي لم يدل على وجوب استبدال ذلك

الشخص بشخص آخر، لكنه قرر أن يعين «سالم السبهان» ممثلاً عنه في الرياض، ويقال بأنه طلب منه أن يراقب وعن كثب تحركات الحاكم الجديد الحاكم الجديد في الرياض. لم تذكر الوثائق التاريخية تاريخ وصول «سالم» إلى الرياض، لكن تذكر بعض الوثائق بأن «سالم» طلب في التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٨٨٩ إذناً بأن يمثل أمام «عبد الرحمن» وأعضاء آخرين من العائلة الحاكمة لينقل إليهم تحيات سيده «ابن رشيد» بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وكانت تلك مجرد شكليات تم ترتيبها ببساطة إلا أن «عبد الرحمن» كانت لديه أسباب في استشعار خيانة ما، ولذلك فضل أن يبادر بالدفاع فما كان منه إلا أن هاجم «سالم» والرجال الذين كانوا معه، وأمر بذبح بعضهم لدى دخولهم صالة الاستقبال، لكن «سالم» تمكن من الهرب. إن ما حدث سيسفر الآن عن متاعب جسيمة. لم يكن أمام «عبدالرحمن» سوى السلاح والقيام بالتحصينات، ويبدو أن الحظ خدمه إذ حدثت تطورات غير متوقعة في «القصيم»، ولسبب ما لم تعرف تفاصيله (علماً أنه من المحتمل أن تفسر تلك التطورات استناداً إلى التنافس الدائم بين «بريدة» و «عنيزة») قام «ابن رشيد» بإلحاق الإهانة بأهالي «القصيم». ومن خلال بحثهم عن حلفاء يقفون إلى جانبهم حيال المشكلات القادمة إليهم، كتبوا رسائل إلى «عبد الرحمن» وعدوه فيها بولائهم له مقابل أن يقدم لهم الدعم.

أبدى «ابن رشيد» ردة فعل فورية لذلك التحالف الجديد، فسار بقواته باتجاه الرياض وأرسل مندوبين عنه إلى «عنيزة» ليؤكدوا على مشاعر الود التي يكنها لهم ولقادتهم، وعندما وصل بقواته إلى غايته المنشودة وجد أن

obeikandl.com

الرياض محصنة بشكل قوي ولم يكن من السهل النيل من المدافعين عنها . وعليه قرر أن يحاصرها وأثناء الحصار شن غارة على طرق الإمداد والتموين وعلى المعسكرات المنتشرة حولها ، كما أقدم على تدمير واحات النخيل ، ويقال بأنه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف نخلة .

وبعد مضي أربعين يوماً على هذه الأعمال التي لم تسفر عن نتيجة مجدية ، تم الاقتراح على أن يجري الطرفان مفاوضات للتوصل إلى تسوية سليمة لكل الخلافات بينهما ، ووافق «عبد الرحمن» على هذا الاقتراح وأرسل وفداً لذلك الغرض برئاسة أخيه «محمد» ومن بين الآخرين الذين وافقوه كان كبير المشايخ «عبد الله بن عبد اللطيف» . وكان من بين الوفد الأمير «عبد العزيز بن عبد الرحمن» الذي لم يبلغ من العمر في تلك الفترة سو« عشر سنوات[١] ، والذي ظهر على مسرح الأحداث في تلك الفترة لأول مرة وكان قدره أن يسيطر عندما اشتد عوده على مسرح الأحداث كلياً . تمكن الجميع بسهولة وبسرعة من تسوية المشكلات المطروحة شريطة أن يرفع «ابن رشيد» الحصار عن الرياض وأن يذهب إلى ديرته بسلام ، وأن يبقى «عبد الرحمن» على عرش أجداده . من المحتمل أن يكون أي فريق منهم قد نوى فعلاً أن تكون هذه الترتيبات نهائية ودائمة ، فقد بلغت خسارة «عبد الرحمن» أكثر بكثير مما يمكنه أن يسترد ، في حين لم يكن أمام الطرف

---

(١) القول بأن عمر الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن كان عشر سنوات مبني على أن تاريخ ولادته كان في عام ١٢٩٧هـ . وهو قول مرجوح غلبه فيما يبدو الرأي القائل بأن مولد الملك عبد العزيز كان عام ١٢٩٣هـ وهذا يتفق مع قيام الأمير عبد العزيز المشاركة بهذه المهمة (مهمة المفاوضة) التي كلفه بها والده ضمن مفاوضاته مع ابن رشيد . للمزيد عن تاريخ مولد الملك عبد العزيز انظر خير الدين الزركلي ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج١ ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

الآخر سوى الشيء القليل الذي يجب أن يفوز به ليحقق حلمه في حكم إمبراطورية «نجد»؛ والواقع أن «عبد الرحمن» كان الطرف الذي بادر في كسر هذه الهدنة.

أصيب «ابن رشيد» بخيبة أمل من تصرف «عبد الرحمن» في الرياض، وقرر أن يصفي حساباته مع أهالي القصيم لأن «حسن المهنا» الذي سقط من اعتبار «ابن رشيد» ولم يعد يلقى حظوة عنده تحالف مع «زامل السليم» زعيم «عنيزة» وقررا أن يطرحا تسلط «حائل» عن كاهلهما. سار «ابن رشيد» بقوة حشدها من رجال قبائل «شمر والظفير وحرب» حتى من رجال «المنتفق» في «العراق»، وتقدم باتجاه «المليدا» التي تقع على حافة رمال الدهناء الشاسعة في منتصف «القصيم». في تلك الأثناء أخذ المتحالفون مواقعهم عند واحات نخيل «القرعا» ودارت لبضعة أيام بعض المناوشات بين الطرفين تكبدت قوات «ابن رشيد» بسببها خسائر جسيمة بلغت أكثر من خسائر الطرف الآخر. بعدها تحرك «ابن رشيد» غرباً باتجاه «الضلفعة» ليغري قوات «القصيم» بالتقدم إلى أراض مكشوفة، وفعلاً تمكن فرسانة المتفوقون عدداً ومهارة من السيطرة على عدوهم الذي أصبح في تلك الأرض المكشوفة تحت رحمتهم.

نجم عن ذلك التخطيط معركة ضارية قتل فيها «زامل السليم»، كما قتل عشرة من قادة قوة بريدة المحاربة، وبلغ عدد الإصابات التي وقعت بين صفوف المتحالفين ٦٠٠ إصابة، وكان النصر الذي حققه «ابن رشيد» نصراً حاسماً بكل الاعتبارات، وأصبحت «القصيم» تحت رحمته وأمام معسكره في بلدة «الرفيعة». وهناك استسلم إليه أهالي المدن والقرى. إصيب «حسن

المهنا» بجرح في المعركة واستسلم وتم إرساله كأسير إلى «حائل» مع عدد من أعضاء أسرته وبقي هناك لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها. عين «ابن رشيد» المدعو «سالم السبهان» حاكماً على بريدة بدلاً من «المهنا»، وعين حاكماً على عنيزة «عبد الله بن يحيى» وهو من أعضاء أسرة «السليم»، وجاء تعيينه مكان «زامل» الذي قتل في المعارك. هذا والجدير بالذكر أن معركة «الميلدا» كانت قد دارت في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني من عام ١٨٩١، وأصبح «ابن رشيد» على إثرها متحكماً بكل مناطق «نجد» دون منازع، علماً بأنه فضل الذهاب إلى ديرته ليحصل على قسط من الراحة قبل أن يتعامل مع مشكلة الرياض البسيطة.

كشف «عبد الرحمن» عن موقفه بسبب التحضيرات التي أعدها لمساعدة حلفائه في «القصيم». وعلى أي حال جاءت مشاركته في المعركة الحيوية متأخرة جداً، إذ علم بالأخبار النهائية لها عندما كان قد وصل إلى منطقة «الجريفة» في سهل «الحمادة»، وإدراكاً منه بأن المعركة انتهت، قفل راجعاً إلى الرياض وأعد ترتيبات سريعة للرحيل عن العاصمة مع أسرته يصاحبهم كل أعضاء عائلته «آل سعود» باستثناء أخيه «محمد» الذي بقي في الرياض ينتظر قدوم «ابن رشيد».

وأثناء هذه الأحداث بقي «عبد الرحمن» يهيم في المنطقة الشرقية بانتظار وصول جواب من الشيخ «عيسى» أمير البحرين بخصوص طلبه في أن يحصل أطفاله ونساؤه على اللجوء السياسي في البحرين لحين أن تجلو الرؤية عن تطورات الوضع. وبالطبع كان جواب الشيخ «عيسى» إيجابياً. وبعد أن أمن عبد الرحمن على سلامة زوجاته وأولاده في منأى من

المشكلات، قام بجمع عدد من البدو وعاد بهم إلى الرياض، لكن دون نية للبقاء فيها، وكانت الخطوة التالية التي ترتب عليه القيام بها هي اللجوء إلى «حريملاء» لكن ما أن سمع «ابن رشيد» بأخباره حتى قدم إلى منطقة «البرة» على رأس قوة كبيرة، ومن هناك شن هجوماً مباغتاً على الهاربين والفرين المتواجدين في «حريملاء»، لكن «عبد الرحمن» وأتباعه تمكنوا وبشق الأنفس من الهرب ليهيموا مرة أخرى في الصحراء بانتظار ردود تتعلق بمناشدتهم الأتراك في «الأحساء» ومناشدتهم أمير «الكويت» في السماح لهم بالاستقرار في المناطق الخاضعة لإدارتهم. وعندما رفض كل من الأتراك وشيخ الكويت طلبهم، وسار «عبد الرحمن» بجماعته عند حوالي نهاية ذلك العام باتجاه «قطر» وهناك مكث لمدة شهرين آخرين دارت خلالهما مفاوضات مع الأتراك حول شروط استسلامه. وأخيراً وبسبب المساعي الحميدة الي قام بها «حفيظ باشا» المتصرف العثماني في «الأحساء» وافقت الحكومة العثمانية أن تدفع له ستين ليرة ذهبية شهرياً، كما أذنت له بالاستقرار مع عائلته في أي مكان يشاء داخل حدود المنطقة الخاضعة للحكم العثماني. وقع اختياره على «الكويت» ليراقب منها مجرى تطور الأحداث في «نجد» وبعيداً عن أذى حكامه الجدد.

بعد حادثة «حريملاء» توجه «ابن رشيد» بقواته لاحتلال الرياض، وتمكن من هدم سورها الدائري وتحصيناتها، وعين «محمد بن فيصل» أميراً عليها بالنيابة عنه، ولم يكن ذلك التعيين سوى ترتيب مؤقت لأنه في العام التالي (ونتيجة لتذمر أهالي الرياض من أن عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم جعلتهم عرضة لغزوات أو غزوات البدو على محاصيلهم وماشيتهم) قام

«ابن رشيد» بتعيين رجل من «حائل» يدعى «عجلان» حاكماً على إمارة الرياض، وأوكل إليه مهمة الدفاع بكل الوسائل عن أهالي الرياض. وتحولت مناطق «نجد» إلى إقليم غير جدير بالاهتمام وتابع لحكم أسرة غريبة عنه، وأصبح تاريخ «نجد» دينياً محدوداً تكثر في سجلاته التاريخية أحداث وفيات وجهاء تلك المناطق، وأمور تعيينات إدارية طفيفة كان يفرضها «ابن رشيد» من حين لآخر. ويبدو أنه لم يعد يشغل تفكير «ابن رشيد» سوى شن غارات اعتيادية في فصل الشتاء ضد مختلف قبائل البدو.

ومع نهاية عام ١٨٩٤ حدثت حادثة في «الكويت» لا بد أن يكون «ابن رشيد» قد استمد منها فكرة معينة. تجلت تلك الحادثة في أن قام «مبارك» باغتيال أخيه «محمد بن الصباح» وأخيه الآخر «جابر» واستولى على السلطة في مدينة «الكويت» وعلى القبائل فيها. وقدر له أن يمارس تأثيراً بالغ الأهمية على شؤون الصحراء العربية على مدى عشرين عاماً. بعد تلك الحادثة، ولم تغب عن ذهنه حقيقة أن وجود بقايا من عائلة «آل سعود» في ديرته كان مكسباً لا يقدر بقيمة يدعم به نشاطاته السياسية. في هذه المرحلة تعلم الأمير «عبد العزيز بن عبد الرحمن» دروسه في فن السياسة وإدارة الدولة، الأمر الذي مكنه من أن يرقى إلى منصب مرموق.

وهكذا تستمر قصة أحداث السعودية البسيطة وتنقضي السنوات ويثبت «ابن رشيد» معها نفسه على صهوة الحكم دون أن ينافسه أحد في سيطرته.

حدث في الحادي عشر من شهر تموز من عام ١٨٩٦ كسوف كلي في الشمس، ونظر بعض الناس إلى هذا الحدث على أنه نذير شؤم أو نذير كارثة، علماً بأنه لم يحدث شيء أكثر خطورة من حدث موت أمير المجمعة

«إبراهيم العسكر» الذي وافته المنية بسبب إصابته بمرض الكزاز (وهو مرض تتشنج معه عضلات العنق والفك). ولم تدرك المنية الرجل العظيم «محمد بن رشيد» إلا في شهر كانون الأول من عام ١٨٩٧، حيث توفي عن عمر مديد مشرف، وخلفه في الحكم ابن أخيه «عبد العزيز بن متعب بن رشيد»، وهو شاب كان في الثلاثين من عمره، وكان قدره أن يبدد وعلى مدى عقد من الزمن الإرث الكبير الذي خلفه له عمه «محمد بن رشيد».

obeikandi.com